



إن أعظم رأس مال يملكه الإنسان هو عمره؛ لا أظن أن عاقلاً يقال له: خذ الدنيا وأعطنا من عمرك سنة يفعل! ولهذا يفتدي أحدهم من الموت بالدنيا لو كانت له وهو يعلم أنه لا يُخلد!

ومن المفارقات العجيبة! أنه مع ذلك لا يبالي أكثر الناس بإهدار الأعمار وإضاعتتها سبهاً! وإذا كان من السفه – الذي يحجر على صاحبه – إضاعة المال إسرافاً في الفضول وغير النافع فكيف بالأعمار؟!

وهل العمر إلا هذه الدقائق وال ساعات والأيام التي تمر عليه، وقد جاء في الحديث: «لا تزول قدمًا ابن آدم يوم القيمة من عند ربِّه حتى يُسأل عن خمسٍ: عن عمره فيما أفناؤه، وعن شبابِه فيما أبلأه، وعن مالِه من أين اكتسبَه وفيما أنفقَه، وماذا عملَ فيما علم»، فتأمل! سؤالان من هذه الخمسة إنما هما عن الوقت، مما يدل على عظم قدره وخطير أثره في ميزان الإسلام.

أما السؤال الأول فعام يتناول كل وقت الإنسان في هذه الحياة الدنيا، ألا وهو عمره، وأما الثاني فخاص بوقت محدد من كل العمر ألا وهو وقت الشباب، وقت الصحة والقوه والنشاط.

وشرعية الكمال كما أمرت بحفظ الوقت، ونهت عن إضاعته، وحذرت من السفه وأرشدت إلى الرشد، فإنها قد جاءت بالتشريعات التي تبني في النفوس امثالها لذلك، وتعينها على أخذها بما يصلحها في الدارين، ومن ذلك تشريعات الصيام، وذلك باب واسع، يعني منه هنا الوقت!

إن رمضان مدرسة عظيمة نتعلم فيها حسن الإدارة والحفظ على أعلى رأس مال نملكه، فعندما يتلزم المسلم خلال ثلاثة أيام رمضان بالإمساك عن المفطرات عند وقت محدد، وعندما يبقى ممسكاً طوال ساعات النهار فلا يفطر قبل وقت محدد، وعندما يعلم أنه لو تعمد الأكل أو الشرب أو إتيان أهله بعد أذان الفجر بدقة أو أقل من دقيقة بطل صومه، بل إنه إن بقي ممسكاً يومه كله ثم أفطر عامداً قبيل المغرب بدقيقة أو أقل من دقيقة بطل صومه، إذا علم ذلك واستحضره فلا بد أن ينمي ذلك النظام المحكم أهمية الوقت وإن قصرت مدة! لابد أن يحضر في نفسه ذلك التشريع الرباني – إن أدى ما عليه

فيه وحرص على هذه الدقيقة – فلا ينبغي له أن يضيع الساعات والأيام بلا فائدة.

بل إن المسلم ليعلم أن تفريطه في دقيقة واحدة بلا عنز لا يبطل صومه فحسب لكنه يعرضه لإن عظيم وكبيرة من الكبائر، وقد جاء في بعض الآثار: «من أفتر يوماً من رمضان من غير عنز ولا مرض لم يقضه صوم الدهر وإن صامه»، فلو صام الدهر كله عن هذه الدقيقة التي أفترها عالماً متعمداً وهو يرى قرص الشمس لما كفاه صيام الدهر إن صح الآخر.

فالدقيقة لها قيمة في ميزان الإسلام، وتربيتنا أحکامه وشرائعه على أهميتها بدءاً من أصله وأسه في الشهادتين، إذ ينبغي للإنسان الذي تبلغه الحجة الرسالية ألا يؤخر النطق بهما، لأن الموت يأتي بعثة وقد يؤدي تفريطه في النطق بهما في آخر لحظة من حياته الدنيا إلى حياة أبدية في جهنم والعياذ بالله، ثم في الصلاة حيث لا تصح الصلاة قبل وقت محدد بدقة، ويأثم المرء إن أدتها بعد آخر وقتها المحدد بدقة بلا عنز. وفي الزكاة حيث تجب على المكلف عندما يحول على نصابها الحول، ويأثم إن تهاون في إخراجها في وقتها.

فالصيام كذلك كما تقدم بل تشرعه برمهه مرعي فيه ضبط الوقت، حيث يجب في وقت محدد برؤية هلال رمضان ويحرم في وقت محدد برؤية هلال شوال، وكذلك آخر المبني الأربع، فالحج لا يصح إلا في أشهر معلومة، وإن أدى المرء كل المناسك ما لم يقف بعرفة في وقته المحدد فاته الحج، فلو أتنا استفينا من هذه الدروس التي تبعثها العبادات في النفوس لو أتنا استفينا منها في حياتنا العملية لما فرطنا في أوقاتنا وأعمارنا ولملأنا الحياة بالجد والعمل لنصرة هذا الدين وأهله، وعندها فإن رحمة الله واسعة ووعده بنصر عباده حق، كما قال سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ} [الرعد: ۱۱].

لقد كان بلال وابن أم مكتوم رضي الله عنهم يؤذنان أذانى الفجر للنبي صلى الله عليه وسلم، فأراد عليه السلام أن يبين للناس الوقت الذي يجب عليهم أن يمسكوا فيه عن المفطرات في رمضان فقال: **«إِنْ بِلَالاً يَؤْذِنْ بِلِيلٍ فَكُلُوا وَاشْرِبُوا حَتَّىٰ يَؤْذِنَ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ»**. وقد يظن من يسمع الحديث أن بين الأذانين متسعاً من الوقت، لكن الروايات الصحيحة تدل على عكس ذلك، يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وهو راوي الحديث المذكور كما في رواية مسلم: «ولم يكن بينهما إلا أن ينزل هذا ويرقى هذا»، وفي هذا أعظم إرشاد إلى قيمة الوقت مهما قصر، فليس بين جواز الأكل والشرب وامتناعه إلا هذا الوقت القصير.

وقد يشكل على البعض أن يناظر الأذان الذي يجب معه الإمساك بابن أم مكتوم رضي الله عنه مع كونه أعمى، لكن الروايات الصحيحة تزيل هذا الإشكال، قال ابن عمر رضي الله عنه في رواية البخاري المتقدمة: «وكان رجلاً أعمى لا ينادي حتى يُقال له أَصْبَحَ أَصْبَحَتْ»، فكان بلال رضي الله عنه يؤذن الأذان الأولى تنبيهاً للنائم وليقضي في رمضان نهنته من شرع في طعامه أو شرابه، وابن أم مكتوم يؤذن الأذان الثاني الذي يوجب الإمساك بدقة في وقته، فعلى مثل هذه الدقة يربينا شهر رمضان.

فهلا حرصنا على الدقيقة في عامته، ولاسيما عشره الأخير، فثمة ليلة الدقيقة فيها نحو من ألف ساعة!

وفق الله الجميع لاغتنام أيام العمر، والتَّزُورِ من التقوى في هذا الشهر، اللهم أعننا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، ولا يجعلنا من الغافلين، والحمد لله رب العالمين.

